

الفصل الثامن عشر

مرض أبي بكر ووفاته

قضى أبو بكر على ردة العرب وعلى الثورة التي اندلعت إثر وفاة الرسول بسبب هذه الردة فأشعلت شبه الجزيرة ناراً . ثم إنه فتح العراق وأوشكت جيوشه أن تدخل المدائن عاصمة فارس ، كما تقدم في فتح الشام وسائر النصر أعلامه فيها إلى دمشق . وبينما تبهر هذه الانتصارات أنظار العالم إذا أبو بكر يقيم الحكم في البلاد العربية المتحدة على أساس الشورى ، وإذا هو يجمع كتاب الله ، فيقر له الجميع بأنه أعظم المسلمين أجراً في جمعه بين اللوحين . هذه أعمال ضخمة عظيمة أقرت الدين الحنيف في منزل الوحي ، ومهدت لإقامة الإمبراطورية الإسلامية ولانتشار هذا الدين الحنيف فيها ، ولقيام الحكم بين أهلها على أساس متين من الإنصاف والعدل . وكان ذلك كله في سنتين وثلاثة أشهر .

ما تم في خلافة
أبي بكر

أليست هذه بعض معجزات التاريخ؟! في سنتين وثلاثة أشهر تطمئن أمم ناثرة وتصبح أمة متحدة قوية مرهوبة الكلمة عزيزة الجانب ، حتى لتغزو الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين تحكمان العالم وتوجهان حضارته ، لتنهض بعبء الحضارة في العالم قرونًا بعد ذلك . هذا أمر لم يسجل التاريخ مثله ، فلا عجب أن يقتضى من أبي بكر مجهوداً تنوء به العصبه أولو القوة . أما وقد تحطى أبو بكر الستين يوم بوبيع ، فطبيعي أن يهيض هذا المجهود قوته وأن يعجل به إلى لقاء ربه .

ولعلك بعد الذى تلوته من تفصيل هذه الأعمال الجسام أن تقدر هذا المجهود وما كان له من أثر . بل لعلك قد رأيت أن هذا المجهود لا يمكن أن ينهض به رجل إلا إذا أوتي من توفيق الله ومعونته ما لا يؤتاه إلا الصديقون . وهذا ما آمن به أبو بكر ، ولهذا نقش على خاتمه : « نعم القادر الله » .

الزم بأنه مات
مسروراً

عجلت عظمة المجهود وتقدم السن وفاة الخليفة الأول ، وإن جرت رواية أبو بكر الصديق

في تعليل وفاته بأن اليهود دسوا له السم في طعام تناول منه عتاب بن أسيد معه ، كما تناول منه الحارث بن كلدة لقيات ثم كف ، وأن هذا السم كان بطيء الأثر يقتل بعد عام من تناوله ، ولذلك مات عتاب بمكة في اليوم الذي قبض فيه أبو بكر بالمدينة . وهذه الرواية لم تؤيد بسند جدير بالثقة . وما يزيد من تهافتها أن أبا بكر لم يكن بينه وبين اليهود في خلافته نزاع ، وأن اليهود جلوا منذ عهد رسول الله عن المدينة .

رواية عائشة في مرضه ووفاته
والرواية الراجحة في مرض أبي بكر ووفاته تسند إلى ابنته أم المؤمنين عائشة وإلى ابنه عبد الرحمن ، قالوا : كان أول ما بدأ مرض أبي بكر أنه اغتسل في يوم بارد فحسّم خمسة عشر يوماً لا يخرج إلى الصلاة ؛ وكان يأمر عمر ابن الخطاب أن يصلى بالناس .

على أن أبا بكر لم يفتأ في الأسبوعين اللذين قضاهما في مرضه إلى وفاته دائم التفكير في شؤون المسلمين ، دائم الحساب لنفسه عما قدم مذ تولى أمرهم . فقد كان قويّ الشعور منذ مرضه بأن أجله جاء ، وأنه ملاق ربه . وقد كان مغتبطاً لذلك مطمئناً له ، لأنه كان في السن التي اختار فيها رسول الله الرفيق الأعلى ، ولأنه كان يشعر بأنه أدى الله حقه . قيل له يوماً : لو أرسلت إلى الطبيب ! فكان جوابه : قد رأيتني . قيل : فما قال لك ؟ قال : إني أفعل ما أشاء . يشير إلى أنه وكل الأمر لله ، وأنه سعيد بقضاء الله ، وأن أكبر همه أن يضمه الله إليه .

تفكير أبي بكر في مصير المسلمين بعده
وأكثر ما شغل به أبو بكر أثناء مرضه إشفاقه من مصير المسلمين بعده . لقد ذكر اختلاف المهاجرين والأنصار بسقيفة بني ساعدة حين مات النبي ، وذكر ما كان يوشك أن يحدث بين القوم لولا أن جمع الله كلمتهم على بيعته . ولئن اختلفوا حين وفاته ليكونن اختلافهم أجسم خطراً . فلم يبق الأمر دائراً بين المهاجرين والأنصار دون سائر العرب ، بل لقد جاهد العرب جميعاً ولا يزالون يجاهدون في العراق والشام ، يواجهون فارس والروم . فإذا قبضوا واختلفوا لم يقف خلافهم في حدود سقيفة بني ساعدة ، بل يتخطاها إلى مكة والطائف ، وقد ينتقل إلى اليمن ، وعند ذلك تعود الثورة تتلظى في بلاد العرب . وهي

إن عادت لم يكن مدارها ركناً من أركان الدين ، بل السلطان وولاية الأمر .
واختلاف الناس على أمور الدنيا أشد إثارة للشر وإطارة لنار الفتنة . وما أجسم
الخطر من ذلك على الإسلام والمسلمين في وقت يواجهون فيه الأسدين فارس
والروم ! فكيف يتلافى أبو بكر هذا الخطر ، وكيف يجنب المسلمين ما ينشأ
عن الفتنة من شرٍّ مستطير ؟

لماذا استخلف
أبو بكر على حين
لم يستخلف
رسول الله

فكر في هذا أثناء مرضه وطال فيه تفكيره . وأذمه الله الرأي وعزم له
فلم يتردد . لا سبيل إلى ملافاة ما يشفق منه إلا أن يستخاف من يقوم بالأمر
من بعده ، وأن يجمع كلمة المسلمين عليه . هذا أمر لم يصنعه رسول الله ؛ فقد
قبض ولم يستخلف . ولكن ذلك كانت فيه لله حكمة ، وحكمته ألا يظن
الناس أن من استخلفه رسول الله قد استمد الأمر على المسلمين من عند الله ،
فأصبح خليفة الله . وقد أراد الله من فضله أن يجمع كلمة المسلمين من بعد علي
أبي بكر وأن يهيئ له من التوفيق ما رأيت . فأما إن استخلف أبو بكر فإنما يستخلف
برأيه ، وبإرادة المسلمين . ولن يكون لخليفته على المسلمين إلا ما كان
لأبي بكر ، ولن تكون حكومته إلا كما كانت حكومة أبي بكر .

مشاورته أول
الرأي في استخلاف
عمر بن الخطاب

من ذا تراه يستخلف ؟ لقد عجم عيدان من حوله من أولى الرأي جميعاً
في عهد النبي ، وقد عجم عيدانهم مدة خلافته . وهو اليوم أشد ثقة بأن عمر
ابن الخطاب خير من يخلقه . لكنه إن فرض ذلك على المسلمين فقد ينقل
أمره عليهم ، وقد يبرمون به . لذلك دعا عبد الرحمن بن عوف وقال له : أخبرني
عن عمر بن الخطاب . قال عبد الرحمن : ما تسألني عن أمر إلا وأنت أعلمنا
به . قال أبو بكر : وإن . فقال عبد الرحمن : يا خليفة رسول الله ، هو والله
أفضل من رأيك فيه من رجل ، ولكن فيه غلظة . قال أبو بكر : ذلك لأنه يراني
رقيقاً ، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه . ويا أبا محمد قدر رمقته
فرايته إذا غضبت على الرجل في الشيء أراني الرضا عنه ، وإذا لنت له
أراني الشدة عليه . وسكت هنيهة ثم قال : لا تذكر يا أبا محمد مما قلت لك
شيئاً .

ودعا الصديق عثمان بن عفان بعد عبد الرحمن بن عوف ، وقال له :

يا أبا عبد الله أخبرني عن عمر . قال عثمان : أنت أخبر به . فقال : على ذلك يا أبا عبد الله ! قال عثمان : اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته ، وأنه ليس فينا مثله . قال أبو بكر ؛ يرحمك الله يا أبا عبد الله ! والله لو تركته ما عدوتك ! لا تذكرنّ مما قلت لك ولا مما دعوتك له شيئاً .

ولم يكتف أبو بكر بمشاورة عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ، بل شاور كذلك سعيد بن زيد وأسيّد بن حُضَيْر وغيرهما من المهاجرين والأنصار . وسمع بعض أصحاب النبي بمشاورات أبي بكر وأنه يريد استخلاف عمر ، فأشفقوا من شدة ابن الخطاب وغازطته أن يفرق ذلك كلمة المسلمين ، فاجتمع رأيهم على أن يهيبوا بأبي بكر ليرجع عن عزمه . واستأذنوا فدخلوا عليه ، فقال طلحة ابن عبيد الله : « ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمرأ علينا ، وقد رأيت ما يلقي الناس منه وأنت معه ، فكيف به إذا خلا بهم بعد لقائك ربك ؟ ! » . هنالك غضب أبو بكر وصاح بقومه والمرض يهزه : « اجلسوني ! فلما أجالسوه وجّه الحديث إلى القوم الذين دخلوا عليه فقال : « أبا لله تخوفوني ! خاب من تزود من أمركم بظلم ! أقول ؛ اللهم استخلفت على أهلك خير أهلك » ، ثم اتجه إلى طلحة فقال له : « أبلغ عنى ما قلت لك من وراءك » .

اعتراض
المعترضين على
استخلاف عمر

واضطجع أبو بكر وقد هدّه هذا الحوار ، فانصرف عنه القوم لم يبق منهم إلا عبد الرحمن بن عوف ، وقيل بل خرج عبد الرحمن معهم ثم عاد إليه صبح اليوم التالي ، وقال يجيبه وقد جلس إلى جانب سريره : « أصبحت والحمد لله بارئاً » . قال أبو بكر . « أتراه ؟ » . قال : نعم ! فسكت أبو بكر وسكت عبد الرحمن هنيهة ثم تحدث الصديق وكأنما عناه ما حدث بالأمس : « إني ولّيت أمركم خيركم في نفسي ، فكلكم وريم أنفه من ذلك يريد أن يكون الأمر له دونه » . واستطرد في حديث أحسن معه عبد الرحمن بما يغص نفس الخليفة من ألم لحديث القوم ، فقال له : « خفّضْ عليك رحمتك الله فإن هذا يهيضك . إنما الناس في أمرك بين رجلين ؛ إما رجل رأى ما رأيت فهو معك ، وإما رجل خالفك فهو مشير عليك . وصاحبك كما تحب ، ولا تعلمك أردت إلا خيراً ،

ولم تزل صالحاً مصلحاً .

كتاب أبي بكر
باستخلاف عمر

واطمان أبو بكر إلى استخلاف عمر ، فدعا عثمان بن عفان ، وكان يكتب له فقال له اكتب ، وأمله : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عهد أبو بكر ابن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها ، حيث يؤمن الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب . إني استخلفت عليكم بعدى عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا . وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً . فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه ، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب من الإثم . والخير أردت ، ولا أعلم الغيب . وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . والسلام عليكم ورحمة الله . ثم ختم الكتاب .

وتذهب بعض الروايات إلى أن أبا بكر أملى عثمان حتى إذا بلغ « إني استخلفت عليكم » أغمى عليه قبل أن يملى اسم عمر بن الخطاب ، فكتب عثمان في غيبوبة أبي بكر « إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً » ثم أفاق أبو بكر فقال : اقرأ عليّ ، فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال : « أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلتت نفسي في غشيتي ! » . قال عثمان : « نعم » وأقرّ الصديق ما كتب ، وقال له : « جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله ! »

خشى أبو بكر مع ذلك كله أن يختلف الناس من بعده ، فأشرف من حجرة بداره على الناس بالمسجد وامرأته أسماء بنت عميس مسكته موشومة الديدن ، وقال يخاطب من بالمسجد جميعاً : « أترضون بمن أستخلف عليكم ، فإني والله ما ألوت من جهد الرأي ولا وليت ذا قرابة ، وإني قد استخلفت عمر ابن الخطاب ، فاسمعوا له وأطيعوا » : فقالوا . « سمعنا وأطعنا » .

وصية أبي بكر
لعمر بن الخطاب

وفي بعض الروايات أن عثمان خرج إلى الناس بعد أن أملى عليه أبو بكر وصيته وختمها ، فأبرز لهم الكتاب محتوياً وقال لهم : أتبايعون لمن في هذا الكتاب ؟ قالوا : نعم ، وبابيعوا ابن الخطاب . فلما بايع الناس دعا أبو بكر

عمر فأوصاه بما أوصاه به ، على تعبير ابن سعد في الطبقات (١) .

وإذ فرغ أبو بكر من استخلاف عمر واطمأنت نفسه على مصير المسلمين من بعده جعل يحاسب نفسه على ما قدّم . روى عن عبد الرحمن بن عوف أنه كان يهون على أبي بكر علته وما يدور بخاطره من أمر المسلمين ، ويذكر له أنه لا يأسي على شيء من الدنيا ، فقال أبو بكر : « أجعلُ إني لا آسى على شيء من الدنيا إلا على ثلاث فعلتھن ووددتُ أني تركتھن ، وثلاث تركتھن ووددتُ أني فعلتھن ، وثلاث ووددتُ أني سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنھن . فأما الثلاث اللاتي ووددتُ أني تركتھن ، فوددتُ أني لم أكشف بيت فاطمة عن شيء وإن كانوا قد غلقوه على الحرب (٢) . ووددتُ أني لم

الصدیق يحاسب نفسه على ما فعل وما ترك وما ذسی أن یسأل عن رسول الله

(١) أوردت بعض الروایات نص هذه الوصیة ، وهو ما یأتی : « إني مستخلفك من بعدی وموصیک بتقوی الله . إن الله عملاً باللیل لا یقبله بالنهار ، وعملاً بالنهار لا یقبله باللیل . وإنه لا تقبل نافلة حتی تؤدي الفریضة . فإیما ثقلت موازین من ثقلت موازینہ یوم القیامة باتباعهم الحق فی الدنيا وثقله علیهم . وحق لمیزان لا یوضع فیہ إلا الحق أن یكون ثقیلاً . وإیما خفت موازین من خفت موازینہ یوم القیامة باتباعهم الباطل وخفته علیهم . وحق لمیزان لا یوضع فیہ إلا الباطل أن یكون خفیفاً . إن الله ذکر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سیئاتهم ، فإذا ذكرتهم قلت إني أخاف ألا أكون من هؤلاء . و ذکر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ولم یذكر حسناتهم ، فإذا ذكرتهم قلت إني لأرجو ألا أكون من هؤلاء . و ذکر آية الرحمة مع آية العذاب لیكون العبد راغباً راهباً ، لا یتمنی على الله غیر الحق ولا یلٹی بیده إلى التهلكة . فإذا حفظت وصیتی فلا یكن غائب أحب إلیك من الموت وهو آتیک ، وإن ضیبت وصیتی لم یكن غائب أبغض إلیك من الموت ولست بمعجز الله » . وقیل إن عمر لما خرج من عند أبي بكر رفع الصدیق یدیه وقال : « اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم وخفت علیهم الفتنة فعملت فیهم بما أنت به اعلم ، واجتهدت لم رأياً فولیت علیهم خیرهم وأقواهم علیهم وأحرصهم على ما أرشدهم . وقد حضرنی من أمرک ما حضر فاخلقنی فیهم ، فهم عبادک ونواصیهم بیدک . أصلح اللهم والیهم ، واجعله من خلفائک الراشدين ، وأصلح له رعیتة » ! .

ولیس یسیراً علينا أن نتثبت من صحة الروایة فی الوصیة ولا فی الدعاء . بل لعل لمن شاء أن یرتاب فی نسبة بعض ما انطویا علیه إلى الصدیق رضی الله عنه . وحسبنا أن نذكر عبارته الأخيرة فی الوصیة : « اجعله من خلفائک الراشدين » ونذكر إلى جانبها إنكاره على من دعاه « خليفة الله » وقوله : ولكنی خليفة رسول الله ، لتبين وجه الحججة لمن یرتاب . فإذا أضفت إلى ذلك ما فی تاریخ أبي بكر من اختلاف الروایات ومن ضعفها كان حقاً علينا أن نلتقی ما یروی عنه فی شيء كثير من الخبر .

(٢) لا یذكر الالدین یشکرون تخلف علی عن البیعة هذه العبارة . ولا یذكر بعض الرواة ما یقال من أن أبا بكر ود أن یسأل رسول الله فی أمور منها هل للأنصار حق فی ولاية الأمر .

أمكن حرقت الفجاءة السلمى وأنى كنت قتلته سريماً^(١) أو خليته نجيحاً .
 ووددت أنى يوم سقيفة بنى ساعدة كنت قدذفت الأمر فى عنق أحد الرجلين
 - يريد عمراً وأبا عبيدة - فكان أحدهما أميراً وكنت وزيراً . وأما اللاتى تركتهن ،
 فوددت أنى يوم أتيت بالأشعث بن قيس أسيراً كنت ضربت عنقه فإنه تخيل
 إلى أنه لا يرى شراً إلا أعان عليه . ووددت أنى حين سيرت خالد بن الوليد إلى
 أهل الردة كنت أقمت بذى القصة ، فإن ظفر المسلمون ظفروا ، وإن هزموا
 كنت بصدد لقاء أو مدد . ووددت أنى كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى
 الشام كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق ، فكنت قد بسطت يدي
 كليهما فى سبيل الله - ومد يديه . ووددت أنى كنت سألت رسول الله صلى الله
 عليه وسلم لمن هذا الأمر فلا ينازعه أحد . ووددت أنى كنت سألته : هل
 للأنصار فى هذا الأمر نصيب ؟ ووددت أنى كنت سألته عن ميراث ابنة الأخ
 والعمة فإن فى نفسى منهما شيئاً .

لم يكن ذلك كل ما اختلجت به نفس أبى بكر وما دار بخاطره أثناء
 مرضه . فأنت تذكر أنه قد ترك التجارة ليفرغ لما يصلح شؤون المسلمين ،
 وأن أصحابه جعلوا له من بيت المال ما يصلح به نفسه وعياله . فلما رأى أنه
 مشف على الموت لم تطب نفسه بما أخذ من بيت المال ، بل قال : « ردوا ما عندنا
 من مال المسلمين فإنى لم أصب من هذا المال شيئاً ، وإن أرضى التى بمكان
 كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم » . واستخلص عمر ثمن هذه الأرض
 ورده على بيت المال تنفيذاً لأمر أبى بكر ، وجعل يقول : « یرحم الله أبى بكر !
 لقد أحب ألا يدع لأحد بعده مقالا ! » .

وفى رواية أن عمر قال هذه العبارة لأهل أبى بكر حين أبلغوه مشيئته
 فى هذا الأمر ثم أردفها بقوله : « وأنا والى الأمر من بعده ، وقد رددتها
 عليكم » .

وتجرى رواية ثالثة بأن أبى بكر توفى وليس عنده دينار ولا درهم ،

(١) السريح ، السهل ، أو العجلة .

نزول أبى بكر
 للمسلمين عما أخذ
 من بيت مال
 المسلمين

وإنما ترك عبداً كان يحمل صبيانه ، وناضحاً يستقى (١) بستاناً له ، وقطيفة قيمتها خمسة دراهم ، وقد أمر بحملها إلى عمر بعد أن يُفرغ منه . فلما حملت إلى عمر بكى وقال : « لقد أتعب أبو بكر من بعده تعباً شديداً ! » .

ولسنا نثق بصحة هذه الرواية وإن كانت البيئات قائمة على أن أبا بكر إن كان قد ترك شيئاً بعده فإنما ترك غير كثير . فقد أوصى بخمس ماله وقال : « آخذ من مالى ما أخذ الله من فيء المسلمين » ، أو قال : « لى من مالى ما رضى ربي من الغنيمة » . ولعل بعضهم ودّ لو أن أبا بكر أوصى بأكثر من الخمس ، فأجابه : « لأن أوصى بالخمس أحب إلى من أن أوصى بالربع ، ولأن أوصى بالربع أحب إلى من أن أوصى بالثلث ، ومن أوصى بالثلث فلم يترك شيئاً » . فلو أن أبا بكر لم تكن له تركة وصح ما روى عن عائشة أنها قالت : « ما ترك أبو بكر ديناراً ولا درهماً ضرب الله سيكته » ، لما أوصى بالخمس ؛ ولا بما دون الخمس ؛ فإنما يوصى من يملك شيئاً وإن قلّ .

وكان أبو بكر قد وهب لعائشة أرضاً بالعالية ، كان النبيّ أعطاه إياها ، فأصلحها وغرس فيها ثم جعلها لابنته أمّ المؤمنين . فلما حضر وعائشة تمرضه جلس فتشهد ثم قال : « يا بُنية ، إن أحبّ الناس غيبي إلى بعدى أنت ، وإن أعزّ الناس فقراً على بعدى أنت . وإني كنت نحلّتك أرضي التي تعلمين ، وأنا أحبّ أن تردّيها على فيكون ذلك قسمة بين ولدي على كتاب الله ؛ فإنما هو مال الوارث ، وهما أخواك وأختك » . ولم يكن لعائشة غير أخت واحدة ، فسألت أباها في ذلك فقال : « ذو بطنِ ابنة خارجه فإني أظنها جارية » .

أبو بكر يسترد
ما وهبه لعائشة
ابنته ليكون قسمة
بين ولديه وبنتيه

فكّر أبو بكر أثناء مرضه فيمن يخلفه على المسلمين ، وفكر في رد المال الذي جعلوه له حين خلافته ، وفكر فيما يوصى به من تركته ، ونكر فيما كان نحله ابنته عائشة ليرده على ورثته . ففكر في هذا كله شديد الحرص على أن يدع هذه الدنيا بريئاً ، وعلى أن يلقي الله وقد ألقى عن نفسه كل ما يخشى أن يؤاخذ به الله به . فلما اطمأن إلى ذلك بدأ يفكر في الموت وفي الأهبة له ، فأوصى أن

(١) الناضح : البعير أو الثور أو الحمار الذي يستقى عليه الماء . وفي بعض الروايات

« لقمة » بدل « ناضح » واللقحة : الناقة القريبة العهد بالناح .

وصية أبي بكر
لكفته

يكفّن في ثوبين له كان يلبسهما وقال : « كفنوني فيهما فإن الحى أحوج للجديد من الميت » (١). وأوصى أن تغسله امرأته أسماء بنت عميس ، فإن لم تستطع استعانت بعبد الرحمن ابنه . وإنه لفي شغل بهذه الأمور إذ أقبل المثنى من العراق فأذن الصديق له ، فلما طلب منه أن يمده بمن عاد إلى الإسلام من أهل الردة أوصى عمر أن يفعل وألا يشغل بوفاته عن أمور المسلمين .

وبدأ أبو بكر يعالج سكرات الموت وعائشة ابنته إلى جانبه ، فلما رآته كذلك تمثّلت بهذا البيت من قول حاتم :

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الشَّرَاءَ عَنِ الضَّيِّقِ

إِذَا حَشْرَجْتَ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

فنظر الصديق لإيها كالغضبان ثم قال : ليس كذلك يا أمّ المؤمنين ، ولكن : « وَجَاءَتْ سَكْرَةٌ أَلَمَّتْ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ » . ولما ثقل جالست عند رأسه وتمثّلت :

وَكَلَّ ذِي إِبِلٍ مَوْرُوثٌ وَكَلَّ ذِي سَلْبٍ مَسْلُوبٌ
وَكَلَّ ذِي غَيْبَةٍ يُؤُوبُ وَغَائِبُ الْمَوْتِ لَا يُؤُوبُ

وقيل إن أبا بكر هو الذي تمثّل بهذين البيتين ، وأن آخر ما تكلم به « رَبِّ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » .

رب توفني مسلماً
والحفي ببالصالحين

وقبض أبو بكر يوم الاثنين لإحدى وعشرين ليلة خلت من شهر جمادى الآخرة للسنة الثالثة عشرة للهجرة (٢٢ أغسطس سنة ٦٣٤م) ، وهو في الثالثة والستين من عمره . توفى مساء بعد ما غابت الشمس ، ودُفن ليلاً ، وتولت زوجته أسماء بنت عميس غسله وعاوزها ابنه عبد الرحمن إذ كان يصبّ

(١) كثرت الروايات في وصية أبي بكر بتكفينه ، وكلها مع ذلك منسوبة لعائشة ، فنها أنه كان عليه ثوب فقال : إذا مات فاعسلوا ثوبي هذا وضموا إليه ثوبين جديدين وكفنوني في ثلاثة أثواب قالت عائشة : ألا نجعلها جدداً كلها ؟ فقال : لا ! إنما هو للمهلة ، الحى أحق بالجديد من الميت . ومنها أن أبا بكر سأل عائشة في كم كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : في ثلاثة أثواب . قال اغسلوا ثوبي هذين وابتاعوا لي ثوباً آخر . قالت : يا أبت إنا مرسرون . قال : أى بنية ! الحى أحق بالجديد من الميت ، وإنما هى للمهلة والصديد . ثم روايات أخرى أوردها ابن سعد في الطبقات . (المهلة ، مثلثة الميم : الفحيح والصديد) .

الماء . ثم إنه حمّله على السرير الذي حمّل عليه رسول الله إلى المسجد ليدفن
كما أوصى إلى جواره صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة .

ووضع الجثمان في المسجد بين القبر والمنبر ، وتولى عمر صلاة الجنازة فكبر
أربعاً ، ثم نُقل الجثمان إلى القبر ودخل معه عمر وعثمان وطلحة وعبد الرحمن
ابن أبي بكر . وأراد عبد الله بن أبي بكر أن يدخل ، فقال له عمر : « كُفيت » .
ودفن أبو بكر في حفرة حفرت له إلى جنب النبي ، وجعل رأسه إلى كتف
رسول الله ، وألصق اللحد باللحد . فلما أهالوا عليه التراب خرجوا وقد دعوا
خليل رسول الله وصفية بعد أن جمع بينهما الموت ، فودعوا أقرب الناس
إلى قلب رسول الله وأحبهم إليه وآثرهم عنده ، وأشدهم إيماناً بالله ورسوله .
وقد ارتجت المدينة لوفاة أبي بكر ، وتولّى الناس دهش كدهشهم يوم
قبض رسول الله ، وأقبل على بن أبي طالب مسرعاً باكيّاً حتى وقف بالباب
فقال :

« رحمك الله يا أبا بكر ! كنت والله أول القوم إسلاماً ، وأخلصهم
إيماناً ، وأشدهم يقيناً ، وأعظمهم غنى ، وأحفظهم على رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، وأحديهم على الإسلام ، وأحماهم عن أهله ، وأنسبهم برسول الله
خُلُقاً وفضلاً وهدياً وسمناً ، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله وعن
المسلمين خيراً . صدقت رسول الله حين كذبه الناس ، وأسيته حين يخلوا ،
وقمت معه حين قعدوا ، وسمّاك الله في كتابه صديقاً فقال : « وَالَّذِي
جاء بالصدق وصدق به » . يريد محمداً ويريدك . كنت والله
للإسلام حصناً ، وللكافرين ناكباً . ولم تمضليل حجتك ، ولم تضعف
بصيرتك ، ولم تجبن نفسك ، كالجبل لا تحركه العواصف ، ولا تزيله
القواصف . كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفاً في بدنك ،
قويّاً في دينك ، متواضعاً في نفسك ، عظيماً عند الله ، جليلاً في الأرض ،
كبيراً عند المؤمنين . لم يكن لأحد عندك مطمع ولا هوى ؛ فالضعيف عندك
قوى ، والقوى عندك ضعيف ، حتى تأخذ الحق من القوى ، وتأخذه
للضعيف . فلا حرمتنا الله أجرك ، ولا أضلنا بعدك ! » .

تأبين على بن أبي
طالب أبا بكر

تأبين عائشة
أم المؤمنين
أباها

وأبنته ابنته عائشة أم المؤمنين فقالت : « نَصَرَ اللهُ يا أبت وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ؛ فقد كنت للعالم مدلاً بإدبارك عنها ، وللآخرة معزاً بإقبالك عليها . ولئن كان أعظم المصائب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزقك ، وأكبر الأحداث بعده فقدك ، إن كتاب الله عز وجل ليعدُّنا بالصبر عنك حسن العوض . وأنا متنجزة من الله موعدة فيك بالصبر عنك ، ومستعينة كثرة الاستغفار لك . فسلم الله عليك ، توديع غير قالية لحياتك ، ولا زارية على القضاء فيك » .

تأبين عمر
ابن الخطاب

وكان عمر بن الخطاب أوجز في القول ، وكأنما عقد الرزء لسانه . قال حين دخل على أبي بكر بعد موته : « يا خليفة رسول الله ! لقد كلفت القوم بعدك تعباً ووليتهم نصباً . فبهيات من شقَّ غُبارك ، فكيف اللحاقُ بك » . وتداولت أبناء الوفاة حواضر العرب وبواديهما ، فهزت كل نفس وأسبلت الدمع من كل عين ؛ واضطرب أهل مكة لسماعها ، وبلغ اضطرابهم سمع أبي قحافة فسأل : ما هذا ؟ قيل : توفي ابنك . قال : رزء جليل ! من قام بالأمر بعده ؟ قالوا : عمر . فقال : صاحبه ، ولم يزد . وأرادوا أن يردوا عليه حقه مما ترك أبو بكر فأبى وقال : بنوه أحق به . وما كان لهذا الشيخ الفاني يعد هذا الرزء الجسيم إلا أن يلحق ابنه في جوار الله ، فتوفى بعد ستة أشهر من وفاته .

أفتدل هذه الكلمات الوجيزة التي نطق بها أبو قحافة على أنه كان أجمل العرب صبراً لقضاء الله في خليفة رسول الله ؟ ! أم أن جزعه لوفاة ابنه هو الذي أسكته ، كما أنه هو الذي عجل به إلى لقاء ربه ؟ ! ما نحسب أباً يتجسَّد للمصائب في ابنه إلا تجسَّلاً ، وإن تقدَّمت به السن وأدركه الهرم . لذلك كان حزن أبي قحافة غير حزن سائر العرب . لقد حزن العرب إشفاقاً مما يخبئه الغيب ، بعد أن غيبوا في التراب رجلاً كان البرَّ بهم ، والعطفَ عليهم ، وإنكار الذات في سبيلهم ، وكان إلى ذلك موفقاً كل التوفيق في ولاية أمرهم وسياسة دولتهم . أما أبو قحافة فحزن لأن أعزَّ أجواء نفسه عليه ذهب ، فانهد ركنه وتداغت حياته .

وقد سَحَّ الخطب أمَّ المؤمنين عائشة ، فأقامت النوح على أبيها وشاركتها
أختها أمّ فروة وزوجته أسماء بنت عميس وحبيبة ابنة حارثة ومن اجتمع إليهن
من نساء المدينة . فلما بلغ عمر ما يصنعن جاء إلى بيت عائشة ونهاهن عن النوح
فلم ينتهين . فقال لهشام بن الوليد : ادخُلْ عليهن فأخرج إلى أمّ فروة
ابنة أبي قحافة أخت أبي بكر . وسمعت عائشة قول عمر فقالت لهشام : إني
أخرج عليك بيتي . قال عمر : ادخُلْ فقد أذنت لك . ودخل هشام فأخرج
أمّ فروة إلى عمر ، فعلاها بالدرة فضربها ضربات وهو يقول : تُردن أن
يعذب أبو بكر ببيكائن ! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الميت
يعذب ببكاء أهله عليه » . وتفرق النوائح حين رأين ما أصاب أمّ فروة ، ولم
تستطع عائشة أن تحول بين عمر وما أراد .

ولعل عمر قد أزعجه هذا النوح لشدة جزعه على أبي بكر . فليس أوجع
لنفوسنا من نوح النسوة على ميت نحبه ويحز الألم في قلوبنا لفراقه . وحقّ لعمر
ولكل مسلم أن يشتد يومئذ جزعه . بل إننا اليوم لنشاركهم في حزنهم
وفيما كان من مخاوفهم ، مع علمنا بما أفاء الله على المسلمين في عهد عمر من
نصر ، وما أراد من فضله أن يتوج به سياسة أبي بكر من نجاح وفوز . فلم
يمر الإسلام منذ هاجر النبي إلى المدينة بمثل ما مرت به في عهد الصديق من
محنة ، ولم تسمُ نفوس المسلمين فوق البأس والضراء وحين البأس سموها بفضل
إيمانه وعزمه . لقد امتحن الله المؤمنين في خلافته فأحسنوا البلاء ، واجتاز الدين
الناشئ بفضل إيمان الخليفة وعزمه مناطق الأعراف ، صُلُبًا قويّ الحياة ،
كفيلًا بأن يظل العالم بلواء التقدم والحرية ، وأن يرفعه إلى حضارة سامية هي
وحدها الجديرة بالإنسانية . وقد كانت روح أبي بكر من مصادر هذه القوة .
أفكان الإسلام لا يزال في حاجة إلى فيضها ؟ أم أنه قد تخطى خلال هاتين
الستين وثلاثة الأشهر مناطق الخطر ، فآن له أن يمتد في طمأنينة وأمن ، وأن
يمد إلى الإنسانية المضطربة يوم ذلك يد النجدة ليُقرَّ بينها الإخاء والسلام ! ! .

أثر أبو بكر في
حياة الإسلام

لعلنا لا ندرى ماذا كان يحدث لو لم يستخلف أبو بكر عمر ، ولو لم
يخرج على ما أخذ به نفسه ، ولم يصنع ما لم يصنعه رسول الله . فقد كان هذا

العمل الأخير في حياة الصديق حلقة قوية في السلسلة التي رفعت الإسلام مكاناً علياً ، والتي أراد الله أن يتم بها كلمته وينتصر دينه . تُرى لو أن أبا بكر اختار عثمان أفكان الإسلام ينتشر ما انتشر في عهد عمر ، ثم يزداد في عهد خليفته انتشاره ؟ ! أم أن اختيار عمر كان توفيقاً من الله للصديق فكان الفاروق بطل الموقف ورجل الساعة ؟ ! .

لا غناء اليوم في أن نعرض لهذا الأمر بحكم . لكن الذي لا مرية فيه أن أبا بكر وعمر كانا يتفقان في جوهر النفس على تباين مظاهرها لنا وشدة . صَفَى الإيمان بالله نفسيهما فتنزَّهتا وطهَّرتا وسمَّتا فوق خباثت الدنيا وتجردتا لله ، فكانتا العدل والرحمة والإيثار والحرص على أن ينتصر الحق وتعلو كلمة الله . بذلك كان استخلاف عمر عملاً صالحاً أراد الله به أن يُعزِّز دينه ، وأن يُقر به في الأرض كلمة الحق ، وأن يعلى به منار البرِّ والتقوى .
رحم الله أبا بكر ورضى عنه وألحقه بالصالحين ! .

خاتمة

التنقل المحتوم
للحضارة

ذكرت في تقديم هذا الكتاب أن عهد أبي بكر له ذاتيته الخاصة وتكوينه التام ، وأنه ينطوى على عظمة نفسية تثير الدهشة ، بل الإعجاب والإجلال . ولعل القارئ الذى بلغ من تلاوة الكتاب هذه الخاتمة ، ووقف على ما تمَّ خلال هذا العهد التصير من جليل الأعمال ، يرى رأياً فيما ذكرت ، ويقف لذلك معى ملياً يستخلص من هذا العهد عبرته الباقية ، ليرى كيف تنتقل حضارة الأمم من حال إلى حال بتفاعل عناصر الاجتماع خلال الأجيال والعصور ، فإذا جاء الأجل الذى خطه القدر فى لوحه لم يكن من هذا الانتقال بدئاً ، ولم تستطع قوة فى العالم أن تقف فى سبيله أو تحول دونه .

مكانة فارس
والروم من عالم
يومئذ

إمبراطوريتان عظيمتان تمثل إحداهما حضارة الغرب ومقوماتها من عقائد ونظم ومن فن وعلم وتفكير ، وتمثل الأخرى حضارة الشرق ومقوماتها من عقائد ونظم ومن فن وعلم وتفكير . يمثل الروم حضارة اللاتين واليونان والفينيقيين والفراعنة . وتمثل فارس حضارة إيران والهند ومذاهب الشرق الأقصى مجتمعة . تمتد الأولى من أواسط أوربا بل من غربها الأقصى إلى شرق بحر الروم ثم تتخطاه لتقف عند بادية الشام . وتمتد الأخرى من أواسط آسيا بل من شرقها الأقصى إلى حوض دجلة والفرات ، ثم تتخطاه لتقف عند بادية الشام . وهذه البادية التى تلتقى عندها الحضارتان تمتدُ بينهما جدياء جرداء إلا من قبائل نزحت من شبه جزيرة العرب ، تنتقل فى أرجائها ثم تأوى إلى الروم أو إلى الفرس حيثما يطيب لها العيش ، كما كانت تنتقل فى أرجاء شبه الجزيرة ثم تأوى حيثما يطيب لها المرعى . والإمبراطوريتان تقتتلان فتبهران الأنظار بقوتها وعظمتها ، لا يسكنن تعاقب القرون من حدتهما ، ولا تجدان فى غير الحروب وسيلة لإرواء ظمئهما إلى المجد ، واستكمال حظهما من الترف والنعيم .

أفأعوزت إحداهما أسباب العيش فكان ذلك سبب ما اتصل بينهما من

حروب أفنت كليهما فيها على القرون ما لا يحصى من مهج ، وبيعت فيها الأرواح ببيع السباح ؟ كلا ! بل كانت الإمبراطوريتان مترعيتين بخيرات البلاد التي تحكمانها . كانت الروم تنعم بما تغل مصر وسائر ممتلكات قيصر من زراعة وما تنتج من صناعة ، وبما كان لمصر وسائر بلاد الإمبراطورية من تراث ضخم في العلم والأدب والفن . وكانت فارس تنعم بخيرات البلاد الخاضعة لسلطان كسرى ، والتي كانت تمدها بكل ثمراتها . لكن كل واحدة من الدولتين كانت تزعم لنفسها حقاً في المتاع من نعم الحياة بما لا ينعم به غيرها ، ولا ترى لذلك بأساً بأن تغضب غيرها ما في يده من أسباب هذا المتاع . أليست لها القوة وفي متناولها أسباب البطش ؟ ! وحق القوة بعض ما آمنت وتؤمن به الإنسانية أمماً وأفراداً . ألا يرى أحدنا مواد الترف حاجات ماسة لا غنى له عنها ، ثم لا يغير من رأيه هذا ألا يجد جاره الكفاف لنفسه والذويه ! . والقوانين تُشرع دفاعاً عن حق القوة . ذلك بأن القوة هي قوام القانون تنفذه وتلزم الناس احترامه . فباسم القانون ينال القوى ما يراه حاجة ماسة لحياته . وباسم القانون وباسم الحضارة تثير الدول الحروب لتبلغ من أسباب الترف ما يكفل المستوى الذي تراه لاثقاً لمكانتها بين سائر الأمم .

لذا ظلت الإمبراطوريتان تقتتلان سبعة قرون متوالية ، فتبهران العالم بقوة بأسهما وسمو حضارتهما . يخالف النصر إحداهما ، ويخالف الثانية تارة أخرى ، فلا تنهته الهزيمة من هيبة أيهما ؛ لأن الأمم الصغيرة من حولهما كانت ترى دورة الدوائر بينهما ، وترى مغلوب اليوم منهما غالباً غداً ، فتحسب أن القدر فرضهما على الوجود فرضاً ، وأنهما من القوى الثابتة في دورة الكون كالشمس والقمر والكواكب سواء .

وبينما لا تعرف الأمم إلا اسميهما ، ولا تتحدث إلا بفعلهما ، إذا أمة تنهض من حيث لم يكن أحد يتوقع أن تنهض . وأنتى لشبه جزيرة العرب ببواديهما الماحلة وصحاريها الجرداء أن تبعث أمة أو تنشئ دولة ! وأنتى لقبائل هذه البادية ، وكل ما تعتمد عليه في حياتها الغزو والسلب ، أن تفكر في حضارة بله أن تقيمها ! ! لقد كان كسرى فارس يسميهم رعاة الإبل والغنم ، وكان قيصر

نهوض الأمة
العربية وتغلبها
عل فارس والروم

الروم يصفهم بالحفاة العرّة الجياع . أفن هؤلاء الرعاة الحفاة تنهض أمة يعبا بها الروم أو يهتم لها الفرس ! .

مع ذلك نهضت هذه الأمة ، فواجهت الأسدين فارس والروم ، وحاربتهما وتغلبت عليهما . وقد رأيت من خلال هذا الكتاب أن العرب لم يتغلبوا على الأسدين بتفوق في العدة أو في العدد ، وإنما تغلبوا بالعقيدة الثابتة والإيمان الذي لا يتزعزع . وبهذا الغلب نشأت الإمبراطورية الإسلامية التي حملت عبء الحضارة في العالم عشرة قرون تباعاً ، والتي نشرت الإسلام في أنحاء الإمبراطوريتين وفيما وراءهما: في الهند والصين والتركستان وغيرها من ممالك آسيا ، وفي مصر وما وراءها إلى المحيط الأطلنطي من بلاد إفريقية ، وفي عاصمة قسطنطين وفي روسيا وأسبانيا وغيرها من أمم أوروبا .

كيف حدثت
هذه المعجزة

كيف حدثت هذه المعجزة ؟! كيف تغلب العرب مع قلة عددهم ، وضعف حضارتهم ، وتأخر علومهم وفنونهم ، على الفرس وعلى الروم ولحم من العدد ومن الحضارة ومن العلوم والفنون ما لا يزال التاريخ يحدث عنه في إكبار أي إكبار ؟! أمهي المصادفة التي لا تفسير لها من سنن الكون ؟! كلا ! فلو أن ما حدث في عهد أبي بكر أمثرته المصادفة لما كتب له أن يبقى وأن يتصل على الزمان ، وأوقف الفرس والروم في وجه العرب فردوهم على أعقابهم . لكن ما حدث في عهد عمر وعثمان من توغل العرب في أراضي الإمبراطوريتين العظيمتين والقضاء عليهما ، لا يدع مجالاً للريب في أن ما حدث كان حتماً قضت به سنن الكون ، ولذلك اطرء فكانت الحضارة الإسلامية ثمرته . وما كانت المصادفة لتتدخل عن مثل هذه الحضارة التي ازدهرت في ظل أوائها كل مقومات الحضارة ، فقد اجتمع للحضارة الإسلامية من العلم والأدب والفن وسائر ألوان الثقافة ما حل في العالم محل الثقافة اليونانية بعلمها وأدبها وفننها وتفكيرها ، وذلك بعد أن كانت اليونان وارثة مصر وأشور والحضارة الإنسانية الأولى جميعاً . لا مفرّ إذن من أن نتلمس لهذه الظاهرة الكونية العظيمة تفسيراً من سنن الكون يكشف لنا عن السر في قيام هذه الحضارة ، وامتداد سلطاتها في العالم ، واستقرارها فيه دهرًا طويلاً .

ومن سنن الكون أن الأمم والحضارات يصيبها الهَرَمُ على نحو ما يصيب الأفراد . فإذا هَرِمَت وشاخت دب الفساد إلى كيانها ، فأدى إلى انحلالها ، وإلى قيام أمة شابة وحضارة شابة مقامها .

أشرت غير مرة في غضون هذا الكتاب إلى عوامل الفساد والاضطراب التي كانت تظهر الحين بعد الحين في فارس وفي الروم . وقد استفحلت هذه العوامل في القرن السادس المسيحي واشتد خطرهما ، فكان من أثرها في فارس أن اضطرب بلاطها ، وانتشرت الدسائس في جوها ، وتنازع الطامعون في عرشها ، واتخذ بعضهم الغدر سلاحه لتولى أمورها . بذلك فسد الرأس ، فامتد الفساد منه إلى ما دونه ، فكثرت مذاهبها وأحزابها ، وتبلبلت عقائد الناس فيها ، فانكمشوا يتوفرون على رزقهم يكثرونه ، ويلتمسون النبل والجاه عن طريقه . هذا إلى أن الطوائف في فارس كانت كثيرة العدد كثيرة المطامع ؛ تريد الحكم تستدل به رقاب السواد ، وتبلغ باستغلاله كل ما تصبو إليه من أسباب النعمة والمتاع . لذلك انحلت العصية القومية في الفرس ، وانهارت القوة المعنوية في نفوسهم ، وتدهور مثلهم الأعلى إلى حيث لا يعدو مُتَع الحياة ولينها . طبيعيٌ وذلك شأنها أن يتداعى ركنها ، وأن تضعف مقاومتها ، وبخاصة إذا واجهتها قوة تسمو على الحياة وتتخذ المثل الأعلى شعارها .

عوامل الفساد
في حياة فارس

وفي حياة الروم ولم يكن أثر هذه العوامل في الإمبراطورية الرومية دونه في فارس . فقد نجمت الثورات فيها لأسباب تتصل بالنزاع بين الفرق المسيحية حينئذ ، والنزاع على العرش حينئذ آخر ، فكان ذلك سبب تدهورها وانحلالها . ومع أن جُسُتِنِيان استطاع أن يردَّ إليها أعظم الاعتبار في نظر العالم يومئذ ، بجلال حكمته ونزاهة عدله وقوة بأسه ، فقد كانت عوامل الانحلال أعمق أثراً من أن يتلافها خلفاؤه ولم يكونوا في مثل حكمته وبأسه . فلما كان أول القرن السابع المسيحي تولى فوكاس عرش الإمبراطورية وساسها بيد من حديد . عند ذلك قام هرقلٌ حاكم إفريقيا الرومية بالثورة عليه ، ثم انتهى به الأمر إلى الظفر به وقتله واعتلاء العرش مكانه . وكان الفرس قد غلبوا الروم في نهاية عهد فوكاس وبدء عهد هرقل فلما حانت الفرصة أخذ هرقل بالثأر منهم ، فحاربهم وغلبهم

وفي حياة الروم

ووطد بذلك سلطانه في الإمبراطورية ، حتى لقد خيّل إلى الناس جميعاً أن عهد جستنيان عائد لامحالة . ثم إنه حاول أن يزيد سلطانه تثبيتاً بالقضاء على أسباب الضعف الناشئة عن اختلاف الفرق الدينية في أرجاء مملكه ، وذلك بتوحيد المذهب المسيحي وفرضه على الناس في جميع أنحاء الإمبراطورية . ولتيم غرضه بطش بخصوص المذهب الرسمي في مصر وفي غير مصر ؛ فكان ذلك سبباً في قيام الثورات واندلاع لهيبها ، ثم كان سبباً في ازدياد الضعف الذي حاول هرقل أن يُخَلِّص الإمبراطورية منه (١) .

كانت هذه العوامل تنخر في عظام الإمبراطوريتين العظيمتين وتتحدرد بهما سراعاً إلى مهاوى الشيخوخة . فكان من مقتضيات سنن الكون أن تقوم أمة شابة مقامهما ، توجه العالم وتكيف مصيره . والنجاح مكفول لهذه الأمة ما حملت إلى العالم رسالة يشوق الناس سماعها ، ويرون فيها ما ينقذهم من شرور طالما ناعوا بها ورزحوا تحت أعبائها .

ما كان عالم يومئذ
يتطلع إليه

لم يكن عالم يومئذ يشقى بأسباب الحياة المادية ؛ فلم يكن همه الأول رفع مستوى العيش . إنما كانت تُعَوِّزه الطمأنينة إلى الحياة والمتاع بالحرية فيها . فقد كان الناس لا يتحركون ولا يسكنون أحراراً في حركتهم وفي سكوتهم ، بل كانت العقائد والقوانين السائدة يومئذ تكبّلهم بقيود شلت حركتهم وأهدرت حريتهم . لم تقف هذه العقائد والقوانين عند المبادئ العامة التي تكفل للفرد حريته في ضل النظام ، وتكفل بذلك للجماعة أن تطوّر إلى ناحية الكمال بجهود أفرادها الأحرار وجماعاتها الطليقة ، بل دخلت القيود مع الفرد دارة ومخدّعه ، وآذته في يقظته وفي نومه ، فشلت نشاطه وتفكيره ، وجعلت التحايل وسيلته إلى انتقاء الأذى والفرار من البطش ، وإلى اهتبال الرزق من كل طريق ، والتوسل بسعته وبسطته إلى مكان النبل والجاه ، نبل البطش وجاء الجبروت . وحيثما قضى على النشاط الحر للعقل الإنساني ، فذلك النذير بانحلال الأمة وتدهورها ، وبديب الشيخوخة إلى كيانها .

فالحرية العقلية هي التي طوعت للإنسان منذ أقدم العصور أن ينظر وأن

(١) راجع كتاب فتح العرب لمصر ، الفصل الأول والفصل الثالث عشر .

يلاحظ وأن يعلم وأن يبتكر . أسلافنا الأولون الذين عاشوا في الغابات وحاربوا الحيوان ، إنما استطاعوا محاربتهم يوم هدتهم حرية الغريزة إلى ابتكار الأدوات التي استعملوها في حروبهم في العصر الحجري والعصور التي تلتها . فلما أقامت الجماعة الإنسانية الأولى على ضفاف النيل وعزنت الزراعة ، ثم عرفت حياة الاستقرار والحضارة أدركت بفطرتها أن لا مفر لها من نظام يكفل لها الأمن وحرية العمل ، وأن لا مفر لنظامها من قواعد ثابتة يقرها الجميع ويحترمونها . وقد هدتهم فطرة الاجتماع الغريزية في الإنسان إلى تجسيد هذه القواعد ، وتقديس ما ظنوه آلهتهم التي ترعاها وتحميها . ثم ما لبثت هذه الجماعة الأولى ، حين سما تفكير الموهوبين من أبنائها إلى ما فوق الغريزة الفطرية ، أن قدرت معاني العدل والحرية والكرامة الإنسانية . بذلك استيقظ الضمير ، ففتحت للإنسان أبواب التفكير ، فاهتدى من سبيلها إلى العلم وإلى الأدب والفن ، كشف له أستارها من اختارتهم الأقدار لمعالجتها وهبت لهم هبتها . وظل التطور الإنساني يتقدم في هذه الناحية حيناً ويتراجع حيناً آخر في جزر ومد . وفي كل حين كانت حرية العقل آية تقدم الإنسان ، وجموده آية تراجعه . فإذا تحرر العقل استطاع بقوة تفكيره أن يتحكم أو يقدر في قوى الطبيعة . وأن يسخرها لأغراض الإنسان ، وأن يفيد بذلك من هذا التحكم جديداً لرقبه . وإذا جمد العقل وقف تقدم الإنسانية ، فاكتمت بغريزة حفظ النوع تستجن في كنفها حتى تبتعثها الحرية العقلية إلى التقدم كرة أخرى .

لم يكن بد^٢ ، وقد جمدت الإمبراطوريتان فارس والروم فذب الفساد في كيانهما ، من أمة جديدة تنهض فتدفع العالم إلى الأمام . ترى في آية أمة تستكن^٣ هذه القوة الدافعة ، ومضى يتاح لها أن تظهر ؟ ! ذلك أمر كتبه القدر في لوجه ، أو هو ، على تعبيرنا العلمي في هذا العصر ، أمر ثابت في دورة الزمان والمكان للجماعة الإنسانية ثبوت كسوف الشمس وخسوف القمر وظهور المذنبات في دورة الفلك . وقد شاءت الأقدار فألقت على الأمة العربية في

(١) رابع كتاب « فجر الضمير » The Dawn of Conscience تأليف برستد وترجمة

الأستاذ سليم حسن .

شبه الجزيرة عبء النهوض بالحضارة المتداعية ، وبعث الحياة في شتى نواحيها .
ولذا اصطفى الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، فأوحى إليه دين الحق يبلغه
للناس ويدعو إليه بالحجة والموعظة الحسنة ، عن طريق النظر في الكون ، نظراً
حرراً من قيود الوثنية والحوسية ومن الجدل العقيم الذي هوت إليه المذاهب
المتضاربة في بلاد الروم . وقد حوربت هذه الدعوة في منبتها حرباً انصلت على
السنين ، فلم تعرف هواده ولا صلحاً ، حتى نصر الله دينه وأتم كلمته . وإنما
أراد الله لهذه الدعوة أن تنتصر ببساطتها وصفائها وسموها بالكرامة الإنسانية
وبالعقل الإنساني إلى المكان اللائق بهما . وبانتصارها قضى على الوثنية في
شبه الجزيرة كلها قبل أن يختار رسول الله ما عند الله .

أما وقد قضت الدعوة إلى التوحيد وإلى مبادئ العدل وسمو الخلق على كل
ما يخالفها ، فلم يكن لزعماء الردة في بلاد العرب أن يحاولوا إعادة الوثنية .
وإنما حاول هؤلاء الزعماء استغلال التوحيد والمبادئ المترتبة عليه ليمتشر سلطانهم
وتعظم فائدتهم في تجارة الحياة . ولهم من العذر عن ذلك أننا معشر الناس
لما نبغ من سمو الإدراك ما يجعلنا نقيم الحد الفاصل بين الحق لذاته ، والمنافع
المادية التي نجنيها من استغلال اسمه والتذرع لخداع الناس بسلطانه . والناس
يرون الحق فيبهرهم لألاؤه ، ويتعشون دون استجلائه في جلال كماله ؛ لأن
الضمير الإنساني لا يزال في طفولته ، والنفس الإنسانية لا يزال جوهرها العاوى
يختلط بجواهر النقص التي تغشى عليه وتفسد حكمه .

لذلك يؤذى الناس من يدعونهم إلى الحق . ويحتمل الدعاة الصادقون
هذا الأذى راضية نفوسهم ما أدى احتمالهم إلى ذبوع الحق وانتشار كلمته . وكلما
علا صوت الحق اشتد في حربه من يخشونه على بسطة رزقهم وسلطان بأسهم .
ذلك هو النزاع الذي اتصل على الزمان بين المنافع العاجلة والمبادئ الخالدة ،
والذي جعل الحرب مسوغة للقضاء على الباطل ورد كيده إلى نحره .

والضمير الإنساني لا يزال قريباً من طوره الذي كان عليه في القرن السادس
المسيحي . فهو لم يشب بعد عن الطوق . لذلك لا تفتأ الحرب تشب لأغراض
دون ما قامت حروب الردة وحروب الفتح في العراق والشام لتحقيقه . ترتفع

لماذا يؤذى الناس
من يدعونهم إلى
الحق ؟

طفولة الضمير
الإنساني وأثارها

الصيحة للحرية وللعدل وللإخاء ، فيلقى الناس بكل سمعهم للمنادى بها ، ويبدلون حياتهم فداء لها ، وتدوى آلات الدمار لنصرتها . فإذا وضعت الحرب أوزارها ، توقع الناس أن تظلمهم المبادئ التي قاتلوا في سبيلها . لكن ما تحقق من هذه المبادئ لم يزد يوماً على طيف تتبدى وراءه حقيقة نحيفة هي على نحافتها مبهمة غير واضحة المعالم . ومن ثم بقيت الشرور التي شكها الناس منها تثقل حتى اليوم كواهلهم ، ولم تفد مبادئ الحرية والعدل والإخاء من توضيحات الإنسانية إلا قليلاً . أما الثمرة الكبرى للحروب الطاحنة فقد آل معظمها إلى الذين يؤمنون بحق الجسد في النعمة والمتاع ، والذين يبتغون الجاه والمال ويكثرون الذهب والفضة ، ولا يرون بأساً في أن يرووا غلَّتْهم للمتاع وظلمهم للمال بما أريق من دماء الإنسانية ، وما بذل من مهج وأرواح فداء للعدل والإخاء والحرية .

وسبب ذلك ما قدمنا من أن الضمير الإنساني لا يزال أدنى إلى الطفولة . والطفولة كثيرة العثرات . لكن عثرات الطفل لم تصده يوماً عن أن يعود فيمشى ليعر من جديد .

وهذه العثرات هي التي تعامه كيف يحفظ توازنه حتى تصل به إلى أن يسير مستقيماً سوى القامة ، يسرع الخطأ إلى فتوة الشباب ثم إلى حكمة الرجولة . ولعل عثرة قاسية تكسب الناشئ على وجهه تكون أجدى عليه وأقوى أثراً في تقويم سيرته . ولقد كانت كبة فارس والروم من العثرات القاسية التي صادفت الإنسانية ! لذلك كان قيام الإسلام ونهوض الإمبراطورية الإسلامية من أقوى البواعث على تقدم الضمير الإنساني إلى ناحية نضجه .

استرعى الإسلام
سمع الناس ؟

وآية ذلك أن الإسلام إنما استرعى سمع الناس فداناوا به لأنه يصور مثل الإنسانية الأعلى ، ويسمو بالحرية وبالكرامة الإنسانية إلى أرفع الذُّرَا . فهو لا يجعل للناس إلهاً غير الله ، هم عباده وحده جل شأنه ، لا يملك لهم أحد غيره نفعاً ولا ضرراً ، ولا مثوبة ولا عقاباً . وما يصيبهم في هذه الحياة أو يصيبون فيها يجزيهم الله عنه الجزاء الأوفى . فليعملوا إذن مطمئنين إلى حريرتهم ، لا يريدون إلا وجهه . فإذا أصابهم ظالم بمكروه فالويل لظالمهم من ربه . وإذا

وأوا منكرًا فليز يلوه ، وليعلموا أن الله من ورائهم محيط .

لماذا اصطفى الله
نبيه من شبه
الجزيرة ؟

لماذا كتب القدر الحكيم منذ الأزل في لوحه ، فاصطفى الله نبيه الكريم
من شبه جزيرة العرب دون غيرها من أرجاء العالم ؟ ! .

ليس في مقدورنا ، ولا في مقدور غيرنا ، أن يقطع برأى حاسم في الجواب
عن هذا السؤال . فنحن جميعاً لم نؤت من العلم إلا قليلاً . لكن ذلك لا يمنعنا
من تلمس سنن الكون والاجتهاد لإدراك ما يقع بمشيئة الله فيه . وما يقع في
حياة الإنسانية وجماعاتها يخضع لهذه السنن الثابتة كما يخضع لها سائر ما في
الكون مما برأ الله . فمن الحق علينا أن نحاول تفسير الظواهر الاجتماعية على
ضوء هذه السنن ، وإن كنا لا نطمح اليوم ، وعلمنا الإنساني كما هو ، في أن
نعرف ما يطويه غيب المستقبل للجماعات الإنسانية على النحو الذي نستطيع
أن نعرف به ما سيكون من أمم الأفلاك ودوراتها .

والذي يهدينا إليه الاجتهاد جواباً عن هذا السؤال أن حضارة العالم
استقرت في الأجيال الأولى من حياة الإنسانية ، وإلى القرن السادس المسيحي ،
في مصر وأشور واليونان ورومية ، ثم امتدت منها إلى ما وراءها ؛ وأن العقل
الإنساني بلغ من النضج في هذه المناطق ما لم يبلغه في غيرها ، مما يسر للضمير
الإنساني أن يستيقظ فيها ويزغ فجره . ولذلك وجهت الإمبراطوريتان فارس
والروم مصابير العالم في ذلك العهد ، ونهضتا بعبء الحضارة فيه . فلما آن لهما
الإمبراطوريتين أن تهتما كانت شبه جزيرة العرب هي المنطقة المستقلة
عنهما ، المتصلة مع ذلك بهما ، المتداخلة فيهما . ومهما يكن من أمر هذا
الهـرم الذي أصابهما ، فالدعوة إلى المثل الأعلى أدنى إلى أن تستجاب فيهما ، وأن
تمتد منهما إلى ما وراءهما . هذه كلها أحداث كتبت منذ الأزل في لوح القدر ،
فلا غرو أن يكتب معها منذ الأزل أن يقوم الداعي إلى المثل الأعلى في أدنى
الأرض من الإمبراطوريتين وأكثرهما مع ذلك استقلالاً عنهما . فالاستقلال هو
الكفيل بحرية العقل ، وبأن يستجيب الناس آخر الأمر للدعوة إلى الحق .

وكذلك اصطفى الله للقيام بهذه الدعوة نبيّه من أهل شبه الجزيرة ، ومن

بلد هو أكثر بلاد شبه الجزيرة استقلالاً ، وأوفر هذه البلاد لذلك العهد
عزة وكرامة .

ودعا محمد قومه إلى التوحيد وإلى المبادئ التي يتحقق بها مثل الإنسانية
الأعلى ، ثم بلغ دعوته إلى عاهلي الإمبراطوريتين فارس والروم ودعاهما إلى
ما جاء به من الحق . وبذلك أقام الحد الفاصل بين الحق والباطل ، وحذّر
الناس حين دعاهم إلى الحق ممن يخادعون الناس باسمه ، ثم ترك من بعده أصحابه
الذين عزّروه في حياته ونصروه ، والذين أدركوا ما جاء به وامتثلوه .

وأنت قد رأيت كيف بلغ أبو بكر من سمو الإدراك لهذه المبادئ ما مكّنه
من أن يقيم في نفسه الحد بين الحق لذاته والمنافع العاجلة التي يسعى إليها
من يخادعون الناس باسم الحق ؛ ورأيته كيف أصرّ على أن ينصر الحق لذاته
ولو قام لنصرته وحده . وإذا بلغ سمو الإدراك من نفس هذا المبلغ ، فذلك
الدليل على نضج الضمير غاية النضج . ولو أن الإنسانية كلها بلغت يوماً هذا
النضج لما شبّت الحرب بين بنيها ، ولا استجاب الله دعوة الذين يدعونه عند بيته
المحرّم : « ربّنا أنت السلام ومنك السلام ، أحيانا ربنا بالسلام ! » .

لا يزال الأمد بعيداً بيننا وبين اليوم الذي تستجاب فيه هذه الدعوة .
فالناس لا يزالون إذا دعوا بالحكمة والموعظة الحسنة إلى غير ما وجدوا عليه
آباءهم جعلوا أصابعهم في آذانهم ، وأخذتهم العزة بالإثم ، وأبوا أن يجادلوا
بالتى هي أحسن ، وحسبوا أن القوة العاشمة تخفت صوت الحق . ذلك أن
ضميرهم لا يزال في طفولته . والطفل يحسب أنه كما ضج وعلا ضجيجيه
خضع أبواه لرغائبه وأهوائه . فإذا رأى أبويه يهدبانه ولا يزعهجهما ضجيجيه
أذعن وسكن . وذلك ما صنع أبو بكر مع أهل الردّة حين ضجوا وحاولوا
المقاومة . أخذهم بما يجب أن يؤخذوا به ، ففضى على مقاومتهم وعلى
ضجيجهم .

وشاءت الأقدار أن تمهّد لانتشار الإسلام في فارس والروم بانتشار العرب
في بادية الشام ؛ فقد يسّروا لأهل شبه الجزيرة أن يتفدوا إليهم ، وأن يتخطوهم

لغزو الفرس على شاطئ دجلة والفرات وما وراءهما ، ولغزو الروم في الشام وفي مصر إلى السودان .

أنت ترى من ذلك كله أن المعجزة التي حدثت في عهد أبي بكر لم تكن ثمرة المصادفة ، وإنما كانت أمراً محتوماً قضت به سنن الكون التي لا تبديل لها . فلو أن شبه الجزيرة لم تكن تجاور الشام والعراق ، ولو أن اللغة العربية لم تكن لغة القبائل التي استقرت ببادية الشام منذ قرون ، ولو أن الله لم يصطف نبيه في ذلك العهد الذي اشتد فيه ظمأ العالم لسماح كلمة الحق والاهتداء بنوره ، لو أن ذلك كله لم يكن لبحر المقادير بغير ما جرت ، ولكان تاريخ الإنسانية غير ما نعرف اليوم ، ولما حلّت الحضارة الإسلامية محل حضارة فارس والروم ، بل لاتخذت الحضارة أطواراً أخرى غير التي عرفنا من يومئذ إلى عصرنا الحاضر .

إبراز الأقدار
ملكات الرجال

وإذ شاءت الأقدار أن تتم على الأرض مثل هذه المعجزة مهّدت لها بما رأيت ، وهيات لها أسباب الفوز ، فأبرزت من ملكات الرجال ومواهبهم ما يخطون به في صحف الكون مشيئة التقدير الحكيم . لقد رأيت ما صنعه أبو بكر وخالد بن الوليد وعمر بن الخطاب وأمراء الجند المسلمين ، ورأيت كيف اضطلعوا لذلك العهد بأعباء ما كانوا ليضطلعوا بمثلها لولا أن أراد ربك لهذه المعجزة أن تتم وفاقاً لسنة . فالولا هذه المشيئة لظل أبو بكر تاجراً ينمو ربحه ويكثر ماله ، ثم تنطوى صفحته ولم تزد مكانته في قومه على زعامة قبيلة تيم بن مرة ، وعلى احتمال الديات والمغارم . والولا هذه المشيئة لظل خالد بن الوليد فارس بنى مخزوم وفارس قریش ، ولما سما اسمه فاقترن على التاريخ بأسماء الإسكندر الأكبر ، ويوليوس قيصر ، وهانيبال ، وجنكيزخان ، ونابليون ، وأولاهما لما أصبح اسم الفاروق عمر بن الخطاب علماً للعدل والرحمة والبأس مجتمعة . فإذا نحن أرخنا اليوم لهم وأشدنا بفعالهم ، وقرناً سمو الدعوة للحق إلى اسم القائد العبقري وجعلنا منهما وحدة على الزمان ، لم نعدُ بذلك أن نرسم صورة من مشيئة القدر والعوامل التي تهيأت لتنفيذها ، والتي أدّت إلى انتقال الحضارة هذا الانتقال الذي مهد لعهد جديد في حياة العالم .

أما وقد ذكرت القائد العبقري خالد بن الوليد، فلا أقف الآن وقفة قصيرة أتناول مسألة تناولتها في « حياة محمد ». لكنني أتناولها هنا من غير الناحية التي تناولتها هناك . لقد طالما تحدثت من شاء عن انتشار الإسلام بالسيف . وقد بيّنت في « حياة محمد » أن القرآن ينكر حرب الاعتداء في مواضع كثيرة منه . يقول تعالى : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » . ويقول : « فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » . وهو يدعو إلى الصلح والصفح والتسامح دعوته لحرية الرأي ولدفاع المؤمن عن عقيدته إن حاول غيره أن يفتنه عنها .

الإسلام يدعو
للمثل الأعلى
والسلام

هذه مبادئ ثابتة في الإسلام يصور بها المثل الأعلى ويدعو الناس إليه . فما بال أبي بكر دفع المسلمين لحرب الردة وفتح العراق والشام ؟ وما بال أمراء المؤمنين بعده نهجوا في هذا الأمر نهجه وساروا فيه سيرته ؟ لقد كان الصديق أكثر المسلمين اتصالاً بالنبى وامتثالاً لما أمر الله به ونهى عنه . أفلا ينهض ذلك دليلاً على أن الإسلام ، وإن أقر مبادئ الرحمة والتسامح والصفح ، لم ينكر على الدعوة إليه أن ينشروه ببطش القوة ! ولذلك غزوا البلاد وحكموها ودعوا أهلها إلى دينهم .

كيفية دفع
أبي بكر المسلمين
للحرب

لا شك أن الصديق قد نفذ في حروب الردة ما جاء في كتاب الله من قوله تعالى في سورة براءة : « فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتَفْصَلُ الْآيَاتُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ، فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ » . وهو لم يعد ما أمر الله به حين وافق على غزو العراق وغزو الشام . وليس معنى ذلك أن هذا الغزو هو المثل الأعلى الذي دعا الإسلام إليه وجعل السلام غايته ، وإنما معناه أن ما حدث منه هو بعض إملاء الغرائز الإنسانية في ذلك الطور من طفولة الضمير الإنساني ، كما أنه بعض إملاء هذه الغرائز في عصرنا الحاضر حيث الضمير الإنساني لا يزال يتدرج إلى الصبا ، فله من الصبا طيشه ونزواته .

الصديق نفذ
ما جاء في كتاب
الله

وإملاء الغرائز كثيراً ما أدى إلى عثرات كعثرات الطفل في سيره ، ترهقه وتؤله ، ثم تنتهي به ليسير مستقيماً سوى القامة يسرع الخطأ إلى فتوة الشباب وحكمة الرجولة .

الإسلام يقدر
الواقع من غرائز
الإنسانية

والإسلام لم يغفل ، حين صور المثل الأعلى للإنسانية ، أن بلوغ الغاية من هذا المثل إنما يكون حين يبلغ الضمير الإنساني نُضْمُجَه . وذلك لا يتم إلا أن تتعاقب عشرات الأجيال ومئاتها حثيثة السعي إليه كما تدرکه . لذلك قدر الإسلام الواقع من أمر الإنسانية وما تملیه عليها غرائزها ، ورسم السبيل التي تسلكها لتتقرب رويداً رويداً من غايتها . وكما أنك إذ تُرَبِّي ولديك ليبلغ ما تريده له من كمال الجسم والعقل لا تَحْمِلُه على أن يسير سيرة الرجال ، بل تُرَضِّي أهواء طفولته وصباه حيناً وتكبح هذه الأهواء حيناً آخر ، وكما أنك تصادف أثناء ذلك من صلابة الطفولة والصبيا ما قد يقف تقدم ولدك تارة ، وتصادف من مرونته وذكائه ما يسرع بتقدمه تارة أخرى ؛ فإذا رأيت صبلياً لم تكسره ، بل لنت له لتلين صلابته ، وإذا رأيت متقدماً أغريته ليتابع تقدمه ويزداد إسرعه فيه ، وربما دعاه هذا الإسراع إلى وقفات تجني عليه وتؤذيه ؛ كذلك رأى الإسلام أن يساير الضمير الإنساني في تدرجه من الطفولة إلى الصبا ، وجعل تهذيب هذا الضمير غايته الأولى ، كما جعلت أنت تهذيب طفلك غايتك الأولى . وهو لذلك يساير الغرائز ليُتَقَوِّمَها . يلين لها حيناً ويقسو بها حيناً ، جاعلاً همه دائماً أن يتجه بها إلى الناحية التي تدينها من الغاية التي أرادها ، والمثل الأعلى الذي صوره لها .

الضمير الإنساني
وتقدمه إلى النضج

والضمير الإنساني يجمد أحياناً حتى تخاله ارتد عن تقدمه ، ويسرع السير أحياناً أخرى إسرعاً يخشى معه العثار . وسيره قد يقف وقد يتغير اتجاهه فإذا القوى التي تدفعه إلى التقدم تضطرب بين أرجاء العالم المختلفة . وذلك ما حدث حين جمدت الأمم الإسلامية وجمدت المبادئ التي دعا الإسلام إليها ، لكن الجمود والوقفه ليسا في طبيعة الحياة ، لذلك يخفيان دائماً عوامل اندفاع تستكن دونهما ، ثم لا تلبث أن تظهر فإذا الإنسانية تستأنف تقدمها .

وهذا التقدم هو الذى يجعلنا نؤمن بأن الضمير الإنسانى لا بدّ له يوماً من أن يبلغ الغاية من النضج . وإن اقتضى ذلك أن تتعاقب عليه مئات الأجيال . فإذا بلغ هذه الغاية بلغ المثل الأعلى كما صورّه الإسلام . عند ذلك يُظِلُّ الأرضَ سلامُ الله ، ويستجيب الله دعاء من يدعونه عند بيته المحرّم : « ربّنا منك السلام وإليك السلام ، أحيينّا ربّنا بالسلام » .

يجب أن يسمع الناس جميعاً دعوة الحق فى مختلف أرجاء الأرض خلال تعاقب الأجيال ليتقدّم الضمير الإنسانى رويداً رويداً إلى النضج . وإن يبلغ النضج مداه حتى يعم الإنسانية كلها . فأما إن نضج الضمير فى ناحية من العالم ثم ظلت غرائز الطفولة ونزوات الصبا تحركه فى سائر الأرجاء ، فسبقت لسلطان هذه الغرائز والنزوات من الحكم ما يديم النزاع ويديم الحرب ، وما يقتضى قوآدأ عباقرة من أمثال خالد بن الوليد أن يكونوا الأداة لتهديب الشذوذ فى كل ناحية لم ينضج فيها الضمير ؛ شأنهم فى ذلك المرئى إذ يهدّب شذوذ تلاميذه .

وإنا لنسجل فى كثير من الغبطة والرضا خطوات تقدمها ضمير الإنسانية من الطفولة إلى الصبا ، لا يصدّتنا عن ذلك ضيق هذه الخطوات واضطرابها . ولقد كان للإسلام فى هذا التقدم أعظم الأثر . وسيكون له مثل هذا الأثر من بعد حتى تتم كلمة ربك ويؤمن الناس بالمثل الأعلى فى مشارق الأرض ومغاربها .

أثر الإسلام فى
تقدم الضمير
الإنسانى

ويسرنى وأنا بصدد هذا التسجيل أن أثبت هنا كلمة للكاتب الإنجليزى الكبير برنارد شو تؤيد رأى . قال :

« لقد كان دين محمد موضع تقديرى السامى دائماً لما ينطوى عليه من حيوية مدهشة ؛ لأنه ، على ما يلوّح لى ، هو الدين الوحيد الذى له ملكة المهضم لأطوار الحياة المختلفة ، والذى يستطيع لذلك أن يجذب إليه كل جيل من الناس .

« لا مرية فى أن العالم يعلّق على نبوءات كبار الرجال قيمة كبيرة . وقد

تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولاً لدى أوروبا غداً ، وهو قد بدأ يكون مقبولاً لديها اليوم .

« لقد عمد رجال الإكليروس في العصور الوسطى إلى تصوير الإسلام في أحلك الألوان ؛ وذلك بسبب الجهل أو بسبب التعصب الذميم . والواقع أنهم كانوا يسرفون في كراهية محمد وكراهية دينه ويعدونه خصماً للمسيح . أما أنا فأرى واجباً أن يدعى محمد منقذ الإنسانية . وأعتقد أن رجلاً مثله إذا تولى زعامة العالم الحديث ، نجح في حل مشكلاته ، وأحل في العالم السلام والسعادة . وما أشد حاجة العالم اليوم إليهما ! .

« لقد أدرك مفكرون منصفون قاموا في القرن التاسع عشر ما لدين محمد من قيمة ذاتية . من هؤلاء كارليل ، وجوته ، وچيبون . بذلك حدث تحول صالح في موقف أوروبا من الإسلام . وقد تقدمت أوروبا تقدماً كبيراً في هذا القرن المم للعشرين ، فبدأت تحب عقيدة محمد . ولعلها تذهب في القرن التالي أبعد من ذلك فتعترف بجدوى هذه العقيدة لحل مشاكلها .

« وقد دان كثيرون من قومي ومن أهل أوروبا بدين محمد في الوقت الحاضر . وهذا يجعلنا قادرين على أن نقول إن تحول أوروبا إلى الإسلام قد بدأ » (١) .

زعماء العالم
الحديث يرددون
مثل الإسلام
الأعلى

هذه الكلمات التي نقلت إلى العربية من عشر سنوات خلت تؤيد ما قدمت . وهما نحن أولاء نسمع اليوم من زعماء العالم عبارات تردد مشتل الإسلام الأعلى وتدعو إليه وتستهنين بالحرب في سببها . ولا تزال الإنسانية تضطرب في هذه السبيل خلال طوفان جارف من الآلام والنضحيات والدموع . وهي تبذل اليوم منها أضعاف ما بذلت مجتمعاً على القرون التي خلت . أفقدت لها أن تبلغ ما طالما أمّلت بلوغه ، وأن تعيش في ظلال الحرية والمحبة والسلام ؟ أفيكون النظام الجديد الذي يتحدث زعماء العالم اليوم عنه محققاً حرية الشعوب ، كما حققت الثورات فيما مضى حرية الأفراد ؟ وهل يؤدي ذلك إلى أن يتحرر الجميع صدقاً من قيود الخوف والفاقة ، وأن يتعاونوا تعاوناً خالصاً لوجه الله

(١) كلمات برنارد شو مأخوذة من مجلة نور الإسلام عدد ٤٠ صفحة ٥٧٢٠ سنة ١٣٥٢ هـ

يسعد به الناس في مختلف أرجاء العالم ؟ هذا أمل عذب ما أحبه إلى كل نفس ، وأقربه من كل قلب ؟ وما أشد الناس حرصاً على أن يتم فتمم به على الأرض كلمة الحق والسلام ! .

وتحقيق هذا الأمل رهن بأن يبلغ الضمير الإنساني فضجه . ترى هل كتب القدر الرحيم في لوحه أن تمشخص الآلام والضحايا التي احتملها العالم في هذا القرن المم للعشرين عن هذا النضج ؟ ! لا ريب عندي في أن الإنسانية ستخطو في هذه السبيل خطوة إن لم نستطع اليوم أن نقدر مداها فن حقنا على كل حال أن نغبط بها ، وأن نرجو بعدها خطوات أفسح منها . فالعالم اليوم تتقارب أجزاؤه ، وتزايد وسائل الاتصال بين أبنائه . كانت الصحافة تعدّ في القرن الماضي أعظم قوة لتيسير التفاهم بين الناس ، ثم كانت صحافة أمريكا لا تصل إلى هذا الشرق العربي قبل أسابيع من ظهورها . أما ما يجري اليوم في العالم فيتلقاه الناس في مختلف أرجائه بسرعة البرق على موج الأثير عن طريق الإذاعة . وهذه الإذاعة المشغولة اليوم بأنباء الحرب وأهوالها ودعاياتها ستشغل غداً بالدعوة إلى السلم وإلى السمو الإنساني وتصور الوسيلة التي تهني أسبابهما . وقد تهذب هذه الدعوة الضمير وتقربه من النضج ، وتجعله الحكم العدل المنزه عن الهوى ، والذي يستطيع لذلك أن يجنب الإنسانية الحرب ، فيجنّب الضحايا والآلام والدماء والدموع .

مى يبرغ فجر هذا اليوم ومى تشرق شمسه ؟ إنا نراه بعيداً ، ويراه الله قريباً . فيومٌ عند ربك كألف سنة مما تعدون . وذلك اليوم الذى تشرق فيه الشمس على الإنسانية وقد نضج ضميرها ، هو اليوم الذى تبلغ فيه الكمال ، ويصبح فيه المثل الأعلى حقيقة واقعة . ويومئذ يصفو جوهر النفس من كل ما يخالطه من شوائب النقص ، فتسمو على إملاء الغرائز الدنيا ، وتمثل مبادئ العدل والرحمة والبر والتقوى في نقائها وطهرها ، ثم تصبح سر حياتها ، فإذا مر بها طيف يخالفها لفظته وعدته دخيلاً عليها وعرضاً يؤذيها ويتلفها . عند ذلك يكمل إيمان الناس جميعاً ، فيحب كل منهم لأخيه ما يحب لنفسه ، وينظر كل منهم نظرة الإشفاق والتألم لكل من تبدو في نيته أو أعماله شائبة من

أثرة أو نزوة من هوى ، ويرون واجباً عليهم أن يلتمسوا له الطب وأن يسعفوه بالدواء ؛ فإن برىء فذاك ، وإلا عزأوه عنهم اتقاء عدواه ، ورجاء أن يسمع أثناء العزلة صوت الحكمة . فإذا سمَّعه برىء وعاد إلى الناس وقد صار مثلهم ، وأصبح ضميره قاضيته الذى يحاسبه وينصف منه من ترد بخاطره خصومتهم ، وأصبحت نفسه التى برأت فلم تعد أمارة بالسوء هى التى تجعل الناس جميعاً أحب إليه من نفسه ، وآثر عنده منها .

ويومئذ يصبح ضمير الإنسانية ميزان العدل بالقسطاس المستقيم ، فلا تكون أمة خيراً من أمة ، ولا جنس خيراً من جنس ، ولا لون خيراً من لون ، بل تكون الأمم كالأفراد أخوة يربط بينها العدل والرحمة ويدعوانها للتعاون على البر والتقوى ، ويجعلان الأمم الصغيرة آثر عند الأمم الكبيرة من نفسها ، والأمم الضعيفة والأمم القوية سواء فى السعى إلى الخير ابتغاء وجه الله وحده .

حكم أبنائنا علينا
وعلى عهد أبى بكر

ويومئذ ينظر أبنائنا مطمئنين من عالمهم السعيد إلى عالمنا الذى انطوى فى صحف الماضى وطوانا معه . أتراهم يتحدثون بينهم مشفقين مما احتمل هؤلاء الآباء بحكم غرائزهم وشهواتهم ، باسمين سخراً من هذه الشهوات والغرائز ، ومن إذعان الناس لها وإسلامهم لحكمها ؟ ! أم تراهم ينصفوننا ، والضمير الناضج منصف بطبعه ، فيقدرون أن غرائزنا وشهواتنا وآلامنا وضحاياتنا هى التى أدت بهم إلى ما ينعمون به من سلام وسعادة ؟ ! ما نراهم إلا منصفين : وما نراهم ، إذا قرء نظرهم خلال هذا الماضى عند عهد أبى بكر ورأوا ما تم فى خلافته القصيرة الأمد من جلائل الأعمال ألا يقولون : رحم الله الصديق صفىّ النبي وخليله ! لقد كان ضعيفاً فى بدنه ، قويماً فى إيمانه . وقد دفع العالم بقوة هذا الإيمان دفعة نشرت فيه لواء الحق وأقرت كلمته . والكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها . والذين جاهلوا مؤمنين لإقرار كلمة الحق لهم عند ربهم جزاء الصديقين ، وحسن أولئك رفيقاً .

ستكون هذه كلمتهم . فهى كلمة التاريخ المنصف . ونحن نقولها اليوم وسيقولها من بعدنا أبد الدهر . ومن أحسن قولاً ممن جعل الحق حجته ، والإنصاف غاية ! .

تقدير وشكر

الآن وقد أراد الله للطبعة الأولى من هذا الكتاب أن تتم ، فمن الحق على أن أقدر معاونة الذين عاونوني أثناء كتابته ، وأثناء طبعه ، وأن أشكر لهم هذه المعاونة أصدق الشكر .

لقد كتبت فصول هذا الكتاب بين شهر سبتمبر سنة ١٩٣٩ وشهر يونيو سنة ١٩٤٠ في الفترة التي انقضت بين وزارتي المغفور لهما محمد محمود « باشا » ، وحسن صبري « باشا » . وكنت إذا فرغت من كتابة بعض فصوله دفعتها إلى الأستاذ سيد نوفل فأملأها على لبيب أفندي فكري إبراهيم فكتبها على الآلة الكاتبة .

ثم إن الأحوال حالت دون مراجعة الكتاب وتهذيبه إلى شهر مارس سنة ١٩٤٢ . فلما تيسر لي من الفراغ ما مكنتني من إعادة النظر فيه جعلت أراجع ما كتبت . وفي منتصف يوليو دفعت ما أتممت مراجعته إلى مطبعة مصر وطلبت إليها أن تتخذ من كتابي « حياة محمد » نموذجاً للطبع في القطع والطريقة ، ونقّحت الفصول التي رأيتها في حاجة إلى التنقيح ، ثم دفعتها من جديد إلى الأستاذ سيد نوفل فأملأها على الآلة الكاتبة .

قد عاونني الأستاذ سيد كذلك في تصحيح تجارب الطبع وأبدى لي أثناءها كما أبدى لي أثناء إملاء الكتاب ملاحظات ذات قيمة . فله عن ملاحظاته ومعاونته وإخلاصه فيهما أجزل الشكر وأصدقته .

ومنذ بدأت أطبع الكتاب تولى الأستاذ عبد الرحيم محمود من أمره مثل ما تولاه من أمر « حياة محمد » و « في منزل الوحي » من قبل ، فجعل همه مع دقة التصحيح إلى الدقة اللغوية والتدقيق في ضبط النصوص والأعلام والألفاظ التي تحتاج إلى الضبط . والأستاذ عبد الرحيم حجة ثقة يعتمد عليه . وقد بذل من الجهد فيما تولاه ما أشكره اليوم له ، كما شكرته من قبل ، مقدراً أصدق مودته وإخلاصه لعمله .

وما دمت بصدد التصحيح فلست أنسى جهد الأستاذ الشاعر محمود أبو الوفا
والأستاذ علي فوده ، فهو جهد جدير بالثناء .

أما الفهارس فوضعها الأستاذان الشيخ محمد البرهامي منصور والشيخ أحمد
عبد العليم البردوني ، فلهما خالص الشكر .

ولست في حاجة إلى التنويه بعناية مطبعة مصر بدقة الطبع وجماله ،
فالكتاب بين يدي القارئ شهيد عليهما . وأحسب القارئ يشاركني في شكرها
عليها ، بذلت من عناية دونها كل عناية .

والحمد الأكبر والثناء الأجل لله جل شأنه ، منه الهدى ، وبه التوفيق ،
وليه يرجع الأمر كله .

محمد حسين هيكل